Majallah Al-Qism Al-Arabi
University of the Punjab,
Lahore - Pakistan.
No.21, Issue: 2014

مجلة القسم العربي
جامعة بنجاب، لاهور- باكستان.
العدد الحادي والعشرون، 2014م.

الأدب العربي وتطوره في الأندلس وشبه القارة الهندية (دراسة مقارنة)

رحمى عمران
الأستاذة المساعدة بقسم اللغة العربية جامعة بهاءالدين زكريا، ملتان
د. محمد أبوذر خليل
الأستاذ المساعد بقسم اللغة العربية جامعة بهاءالدين زكريا، ملتان

ABSTRACT:

Arabic literature is the collective prose and poetry of Arabs. It is approximately seventeen hundred years old. It has had a long history which is marked by an evolution that originated within Arabic Peninsula. This evolution was highly affected by various external influences that were able to permeate the cloak of the Arab society throughout the existence of Arabic literature.

After Prophet Muhammad صلى الله عليه وسلم, the Person who introduced Islam, the Arabs, along with other Muslims of the East, executed the Islamic expansion and in less than a century, Muslim rule extended from the Atlantic to India (Yates 330). Some of the places which they conquered are Spain (Andulus), Egypt, the Near East and North Africa. The expansion brought influences from the

outside, athough these influences were not extensive and did not affect Arabic literature directly. What resulted as a gradual absorption of foreign systems of thought into Arabic literature but then again, there were really no outward signs of changes in said literature. Arabic literature did not flourish only in Iraq but also overseas, especially in Spain.

So the article "Arabic Literature and its development in Spain and Subcontinent (Comparative Study)" discusses the historical, geographical and political situations of Spain and Indian Subcontinent in the evolution of Arabs , and it also makes a comparison with similar and different ground realities in the development of Arabic culture ,language,and literature in both countries.

إن بلاد شبه القارة الهندية والأندلس الإسلامية تتفقان وتختلفان فيما حدث فيهما. فقد تم فتح المنطقتين في نفس الوقت حيث تقدم طارق بن زياد البربري إلى الأندلس وذلك بأمرمن صاحبه موسى بن نصيرالقائد العربي الفاتح الذي فتح العديد من المناطق في شمال إفريقيا في عصر الحجاج بن يوسف نائب السلطنة من قبل الأمويين في عصر عبدالملك بن مروان. و يقال إن القائد البربري المسلم حلف أنه إما يفتح الأندلس أو يموت دون ذلك كما ينص على ذلك المصادر التأريخية كنفح الطيب للمقري. و أنه أحرق السفن التي كانت تحمل جنوده، و خاطبهم في كلمة رنانة قال فيها:

"البحر ورائكم والعدو أمامكم، ولا سبيل إلى الفرار فإمّا الانتصار أوالموت".(1)

وقدّر الله له الانتصار فأخذ يفتح مدينةً بعد مدينةٍ حتى تم له الانتصار وتغلب على البلاد، كل هذا ماحدث في المغرب وأمّا في المشرق فقد تقدم القائد العربي اليافع محمد بن القاسم نحو شبه القارة الهندية وعلى أمرٍ من حجاج بن يوسف الثقفي بعد أن انهزم عدد من القادة العرب الذين حاولوا الدخولَ إلى الهند، ولكنهم َسِروا كلَّ

معوّق دخلوها إلى أن تسلم الحجاج رسالة شفوّية من قبل الأيامى واليتامى العرب الذين مات كبارهم في سرانديب(سرى لانكا اليوم) فأراد الحجاج أن ينقذ هؤلاء المهاجرين الذين تخلفوا بعد موت كبارهم ومن ثم ركبوا السفن التي ركبوها متّجهين إلى بلاد العرب وهاجم قطّاع الطريق من أهل السند هذه السفن ونهبوا أموالهم و قبضوا عليهم وحبسوهم أسرى في زنازن. فيقال أن فتاة عربية استغاثت الحجاج و صرخت حتى قالت: يا حجاج! فلبّى الحجاج دعوتها قائلاً: لبّيك يا فتاة العرب! حينئذ جهّز الحجاج محمد بن قاسم الثقفي لمهاجمة السند و الهند حتى انتصر على حاكم السند و فتحها و ما جاورها من البلاد.

وهاتان الهجمتان لهما فيما بعد من التأثـــير في مجالات السياسة والثقافة و الآداب. أمّا الأندلس فقد كان على رأس الجيوش العربية هم العرب أنفسهم. ولم يُرافقهم إلاّ بعض الفصائل البربرية. فكانت لغتهم الرسمية ولغة التخاطب والترسل ولغة البلاط هي العربية. و ظلت كذلك إلى ثمانية قرون. أما السياسة الأموية في الأندلس فكانت تشبه سياستهم في دمشق الشام ولم يُرافقهم أحد من المتصوفين أو الطرق الصوفية. فركّز أهل العلم عندهم على إنتاج الأدب أو تقدم العلوم الدينية من التفسير والحديث وما عداهما من العلوم الإسلامية.

أما القائد الثقفي فقد ضمّ إلى جيشه عدداً لابأس به من العلماء و أصحاب الطرق الصوفية وكان محمد بن القاسم جيّد الأخلاق حسن السلوك إلى من فتح بلادهم ومن ثم قد أحبّه أهل البلاد وساعدوه في كلّ ما أراد منهم حتى أنّ المعاصرين في السند والهند ظنّوا أنهم قد تحرروا من المجتمع الهندوكي الطبقي كما ظنّوا أن الإسلام نقذهم من عبوديّة البراهمة وظلمهم الذي استمر على قرون ولكن الذين رافقوا محمد ابن القاسم كانوا على صلة قوية بالبلاد العربيّة و من ثم أنتجوا أدباً غالياً تحت إشراف العلماء العرب وقد جمع هؤلاء الرجالُ الأفاضل من أمثال علي المريني الذي ترك وراءه آداباً زاخرة واسعةً استفاد منها المؤرخون والأدباء من أمثال أبي عمرو الجاحظ، و البلاذري وغيرهما من أهل العلم في العواصم العربية الإسلامية في وقتها مثل مصر و

دمشق وبغداد و بلاد الحجاز واليمن إلاّ أن الصلات القائمة انقطعت نهائياً بعد سقوط الدولة الأمويّة.فسادُ الطلاب ونشأت فِرَقٌ باطلة من أمثالِ الباطنية أو القرامطة.أخذوا يخوّفونَ الناس ويبعدونهم عن الدين،واستمرّ ذلك إلى أكثر من ثلاثة قرون. حتى جاء محمود الغزنوي فأنقذ و وضع لبنة جديدةً في الحكم الإسلاميّ.أما الأندلس الإسلامية فلم يدخلها صوفيٌّ ،و إنّما دخلَها الفقهاء المتشددون والفلاسفة الذين لم تكن لهم صلة بالدين،وكان الخلفاء والحكام في الأندلس يشجّعون الشعراءَ والأدباءَ و المؤلفين حتى أن البعضَ من الخلفاءِ و الحكامِ كانعلى مكانةٍ من العلمِ مثل الحَكَم المستَنْصَر.

أوجه التشابه في تاريخ المنطقتين كما تراها الباحثة ومن أهمها:

1- إن الإسلام دخل إلى المنطقتين في وقت واحد وذلك في نهاية القرن الهجري الأول خلال الخلافة الأموية،وتحديداً في عهد الخليفة: الوليد بن عبد الملك(86هـ ـ 96هـ)، في عام 92هـ على يد الفاتح المظفر طارق بن زياد (ت:102هـ) وولاّه موسى بن نُصَير(ت:97هـ).كما أن الإسلام دخل إلى شبه القارة الهندية في الفترة نفسها أي عام 92هـ على يد القائد الشجاع والشاب محمد بن القاسم الثقفي(ت: 95هـ) والذي أرسله الحجاج بن يوسف الثقفي (ت :95هـ) والي العراق من قبل الخليفة الوليد بن عبد الملك.

2- إن المجتمع البشري في المنطقتين ـ شبه الجزيرة الأندلسية وشبه القارةالهندية ـ كان يعاني قبل دخول الإسلام من ظلم واضطهاد نتيجة نظام طَبَقيٍّ قسَّم المجتمع إلى عدة طبقات : عليا ووسطى ودنيا ، ومنها الحاكم والمحكوم والظالم والمظلوم، وما إلى ذلك من اختلاف وتفاوت،مهّد دخولهم في الإسلام وقبولهم لتعاليمه بطيب خاطر ورحابة صدر، لأن الين الإسلامي يضمن لكل ذي حقٍ حقه ومن غيرظلم على أحد.

3- كل من المنطقتين تحتل موقعاً ستراتيجياً في خريطة العالَم، فإذا كان شبه الجزيرة الأندلسية تقع في جنوب قارة أوربا، وتملك الشواطئ على البحر الأبيض

المتوسط والمحيط الأطلنطي فكذلك تحتل شبه القارة الهندية موقعاً ستراتيجياً وذلك لوقوعها في جنوب قارة آسيا التي تملك شواطئ واسعة على المحيط الهندي، كما يوجد شبه عام بين المنطقتين.(2)

4- الأسباب المشتركة التي ساعدت بسقوط الحُكم الإسلامي و من أهمها:

انشغال المسلمين في الأندلس و شبه القارة بالصراعات الداخلية واستعانتهم بأعداء الإسلام من النصارى والوثنيين، الأمر الذي أوجد حفنة من الخَوَنة في الأمة المسلمة الذين لا يجدون أي رادع يحول بينهم وبين ما يشتهون من بيع الشعوب و المتاجَرة بقضاياها المصيرية، وقد فتكوا بهذه الأمة المسلمة وبحكامها و ساقوهم بخياناتهم و مؤامراتهم إلى الانهيار البطيء والأكيد بدءاً من الداخل وانتهاءاً إلى الخارج.

حياة الملوك والسلاطين المترفة ، وانهماكهم في الشهوات والملذات حتى صنعوا لهم في قصورهم الفاخرة داخل أسوارها المنيعة عالماً خاصاً يعُجُّ بالنساء والغلمان والخمور والمغنيين، وتفننوا فيه بصنوف من البذخ وبفنون وألوان من التَّرْف، لايهمهم فيه دين ولا وطن ولا عهود وقد أنفقَت أموال طائلة في بناء تلك القصور، بل لبناء قبور على شكل قصور لدفن زوجاتهم ـ كما هو حال الحمراء في الأندلس و "تاج محل" في الهند و شعوبهم تموت جوعاً وفقراً ، وكانوا يظنون بأنفسهم ـ والعياذ بالله ـ بأنهم لا يُسألون عما يَفْعلون".

فاستشرى الترف والتنعم نتيجة لذلك في الطبقة العليا من الأغنياء والأثرياء في المنطقتين، فتفرغوا هم وحكامهم لسفاسف الأمور، وانتشر فيهم الفسق والفجور، وفسدت أخلاق الناس واستُبيحت المحرمات وهُتِكَت الأعراض والأستار، ونُقِضت عرى الدين بشرائعه وشعائره، الأمر الذي عجَّل بسقوط الحكم الإسلامي في الأندلس وضعفه في الهند و فقاً لقوله تعالى: "وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا".(3)

أوجه الافتراق في تاريخ المنطقتين ومن أهمها:

1- لاحظت الباحثة أن المجتمع الأندلسي في معظمه كان مجتمعاً نصرانياً قبل دخوله في الإسلام وكان يعيش ظلاماً وظلماً ظلام الجَهل والتفرق والحروب، وظلم التثليث وعَبَدَته، وظلم الصليب وكُهَّانه وسَدَنَته.

بينما كان المجتمع الهندي قبل دخوله في الإسلام مجتمعاً وثنياً في معظمه، وكان يعيش تحت ظلام التوهمات والخرافات، وبعيداً عن نور الأديان السماوية وتعاليمها.

2- عند ما نقوم بالمقارنة التاريخية بين المنطقتين عبر القرون الثمانية نرى اختلاف الحكام والخلفاء في شبه الجزيرة الأندلسي في: فترتى الولاية والخلافة (91هـ ـ 400هـ) واللتين استمرتا قرابة ثلاثة قرون و نصف ،وفترة حكم ملوك الطوائف (400هـ ـ 484هـ) والتي استمرت نحو 84سنة ، وفترة حكم المرابطين والموحدين(484هـ ـ 620هـ) والتي استمرت نحو قرن ونصف ،وفترة حكم بني الأحمر في مملكة غرناطة (620هـ ـ 897هـ) والتي استمرت قرابة قرنين ونصف ، نرى حكامها عبر هذه القرون الطويلة ـ على الرغم ماكان يفصل بين دولهم وعصورهم من فواصل زمنية ومكانية ـ أنهم كانوا يرتبطون جميعاً بحضارة واحدة ذات قيم خالدة، وهي الحضارة الإسلامية، التي كانت حضارة إنسانية وعالمية عن استحقاق وجدارة ، قامت على الوحدانية في العقيدة، والاستقامة في الأخلاق ومن حسن حظّ الأندلسيين أن أولئك الحكام المسلمين ـ الذين كان معظمهم من العرب ـ قد اتفقوا على الرغم من اختلاف طبائعهم وأهوائهم على الحفاظ ـ عبر القرون الثمانية ـ على المبادئ والأُسس التي رسخت جذورها في المجتمع الأندلسي خلال الحكم الإسلامي وكان من أهمها:

أن تكون اللغة الرسمية في أرجاء الجزيرة في كافة دوائرها ودواوينها هي اللغة العربية(4)،الأمر الذي أصبح حافزاً أساسياً لأن تكون اللغة العربية هي لغة جميع الأعمال الأدبية لكُتَّابها وشعرائها وأدبائها، وبها أُلِّفت مصنَّفات ومؤلَّفات في سائرالعلوم الشرعية وغيرها، كما اتفقوا أن تكون قراءتهم للقرآن الكريم على قراءة نافع بن أبي نعيم المدني بروايتيه :عن قالون، وورش ـ ، وهي قراءة متوترة عن النبي صلى

الله عليه وسلم ضمن القراءات العشر المتواترة ـ ، كما أنهم اتفقوا على أن يكون مذهبهم الفقهي هو مذهب الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة، رحمهم الله جميعا.(5)

قامت النهضة التعليمية الشاملة في أرجاء الجزيرة، وفي جوامعها ، وجامعاتها عبر القرون بسبب تشجيع حكّامها، وبسبب الامتيازات والمزايا التي كان العلماء ينالونها ويحصلون عليها ، حيث كان حكام الجزيرة الأندلسية من خلفاء بني أمية، ومن جاء بعدهم من ملوك الطوائف والمرابطين والموحدين وملوك غرناطة كانو يختارون حُجّابهم و وزراءهم وكُتّابهم من مشاهير الأدباء والفقهاء والمفكرين ، وبذلك أصبح هذا الأمر ميدانا للتنافس بين الأدباء والفقهاء في كل عصر ، فكان من أهدافهم من هذا التنافس المحمود هو نيل حظوة الحكام والتقرب إليهم والإستفادة من الامتيازات المادية والمعنوية التي كانوا يحصلون عليها.

على حين أن شبه القارة الهندية تختلف في ذلك عن الجزيرة الأندلسية تماما ، لأن الحكم العربي في شبه القارة الهندية كان لفترة محدودة في الفترة (92هـ ـ 388هـ) نحو ثلاثة قرون فقط ، ثم جاء بعدها العهد الغزنوي(388هـ ـ 582هـ) ، ثم الغوريون (582هـ ـ 602هـ) ، ثم سلاطين المماليك (602هـ ـ 689هـ) ثم الخلجيون (689هـ ـ 720هـ)، ثم آل تُغلق (720هـ ـ 815هـ)، ثم السادات (815هـ ـ 855هـ) ثم اللوديون(855هـ ـ 930هـ) وغيرهم الذين جاؤوا بعدهم، فكانت اللغة السائدة في معظم تلك القرون هي اللغة الفارسية، وهي اللغة الرسمية في القصور و الدوئر و الدواوين وبها كُتِب الأعمال الأدبية باستثناء بعض ما أُلّف باللغة العربية في العلوم الشرعية من: تفسير وحديث وفقه ، وعلى فترات مختلفة وكان المسلمون في شبه القارة الهندية على رواية حفص بن سليمان الكوفي عن عاصم بن أبي النجود الكوفي ،ـ وهي قراءة متوترة عن النبي صلى الله عليه وسلم ضمن القراءات العشر المتواترة ـ، وكان معظمهم في الفقة على مذهب الإمام أبي حنيفة نعمان بن ثابت الكوفي رحهمم الله جميعاً .(6)

فشبه القارة الهندية لم يكن فيها اهتمام الحكام باللغة العربية وآدابها ، وبالتالي لم تكن هاك أسباب ودوافع لتشجيعها كماكان الحال في شبه الجزيرة الأندلسية.

3- كانت شبه الجزيرة الأندلسية تنعم في القرون الثمانية بحكام وخلفاء كان معظمهم من المسلمين العرب ، ومن العلماء ذوي الثقافة العالية في اللغة العربية وآدابها، ولم يكونوا يختارون لهم أمراء أو وزراء إلا من أهل العلم والأدب ، الأمر الذي شجع فيها المسيرة العلمية والأدبية باللغة العربية.

بينما كان شبه القارة الهندية لم تحظ بهذه الحظوة ، لأن معظم حكامها الفاتحين كانوا من أصول تركية أو فارسية أو أفغانية ، ولم يكونوا من أهل العلم والأدب باستثناء البعض منهم (7) ، فمعظم الأعمال الأدبية فيها كانت باللغة الفارسية أو اللغات المحلية الأخرى ، ولم تَلْقَ اللغة العربية فيها الاهتمام المناسب والتشجيع الكافي من الحكام والسلاطين مثل مالقيت اللغة الفارسية ، وكان ذلك أحد أسباب ضعف مستوى الإنتاج الأدبي باللغة العربية فيها عبر القرون الثمانية ، ولاسيما في القرنين: السابع والثامن الهجرة.

4- شبه الجزيرةالأندلسية كانت جزيرةً صغيرةً بالمسبة من شبه القارة الهندية ، الأمرالذي سهّل للحكام الأندلسيين نشر اللغة العربية وآدابها فيها ، على عكس شبه القارة الهندية الواسعة المشتملة على العديد من اللغات المحلية والحضارات المختلفة بالإضافة إلى اللغة الفارسية التي كانت لغة معظم حكامها ، فكان الاهتمام فيها باللغة العربية بالدرجة الثالثة وعلى نطاق محدود جداً ، ولايتعلمون بها فيها إلاّ لكونها لغة القرآن و لغة الدين الإسلامي فقط.

5- قد عاشت الجزيرة الأندلسية في ظل الحكم الإسلامي طوال القرون الثمانية مستقلة بذاتها، زاخرة بثقافتها وعاداتها ، وزال منها ظلم الشرك والتثليث ، وظلام التفرق والتشتيت ، أشرقت فيها الأنوار، وتفتّحت فيها الأزهار ، وغرّدت الطيور فرحاً

اِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإِسلامُ" وَمَا اختَلَفَ الَّذِينَ اُوتُوا الكِتٰبَ اِلاَّ

مِن بَعدِ ما جاءهم العِلمُ بَغياً بينهم ومَن يَكفُر بِآياتِ الله فَإنَّ اللهَ سَريعُ الحِسابِ"(8)

فهاجر إليها كل مكلوم، ولجأ إليها كل مظلوم، واجتمع في هذه الجزيرة المباركة اعتدال هوائها ونقاء مائها وتنوع أشجارها، واختلاف أجناسها ولغاتها ، ونتج عن ذلك بلد مثالي اجتمعت فيه المتناقضات وتناغمت فيه المتماثلات، وغدا ماوى لكل قائد غطريف، وكاتب لطيف، وشاعر ظريف، وأبدع فيه أهل العلم وطلابه من الباحثين والمفكرين.

وقدم لنا تاريخ الأندلس صفحات باهرات من ضروب المجد الحربي والسياسي وآيات ساطعات من ضروب التمدن والعرفان ، وكانت بحق هي المنارة التي ترسل شعاعها كالشمس تنير جنبات الأرض، وتضيف إلى أمجاد الإنسان فنوناً من العلوم وألواناً من الآداب ، وفيوضاً من الاكتشافات العلمية والفكرية.

كانت محاورة الأندلس لعدوٍ لدود ، وحاقد حسود، يرقب المخاتل، ويعاون كل صائل أساس البلاء، ومنبع الداء، وأُم النكبات، وأُسس المصائب المبكيات، فلذلک تکالب أهل التثليث على أهل التوحيد فكم طُعِن بهم المسلمون، وأوذي بهم الصالحون من شرق الأرض وغربها، وشمالها وجنوبها، وللأسف قدمت لنا هذه الحقبة من تاريخ الأندلس صفحات مشجية مؤثرة من تقلب الجدود، وتعاقب المحن، والانحدار البطيء المؤلم إلى معترك الهزيمة والذل والهوان.

لكن الصراع الطويل المضطرم الذي خاضته الأمة الإسلامية في الأندلس، قبل أن تستسلم إلى قدرها المحتوم يبدوفضلاً عما يحف به من ألوان البطولة الخالدة، صفحة رائعة من الاستشهاد المؤثر، قلما يقدمها إلى البشرية تاريخ أمة من الأمم ألتي اشتهرت بالذود والدفاع عن حياتها وحرياتها.

وأخيراً قد سقطت قواعد الأندلس الشهيرة تباعاً في سلسلة من المعارك والمحن الطاحنة التي تقلبت فيها الأمة الأندلسية ، فكان ذلك ضربة مميتة للدولة الإسلامية في الأندلس ، وأحدث ذلك أعمق صدى في جنبات الدول الإسلامية في شرق الأرض

وغربها، وشمالها ،وجنوبها، تلك حياة الأندلس وهذا مماتها، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، ما أعظم المصيبة ! وما أفدح الكارثة! "لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ"(9) "مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا"(10).

إن سقوط الأندلس شكّل مأساة كبرى ، لأن سقوطها لم يكن سقوط دولة، وإنما كان سقوط حضارتها ، مما سبَّب جلاء شعب مسلم كامل من جذوره، وتعريضه للضياع الكامل.ومن أشهر المراثي التي نظمت في رثاء الأندلس في القرن السابع رثاء مشهور فاق في الشهرة (قفانبك) وهو لخاتمة أدباء الأندلس أبي البقاء صالح بن يزيد الرندي(ت:689هـ) ولعل من الأنسب نقل بعض المراثي المحزنة المؤلمة المتعلقة بسقوط الأندلس منها ماقاله الرندي: (11)

لِكُلِّ شَيْءٍ إِذَا مَا تَمَّ نُقْصَانُ   فَلَا يُغَرَّ بِطِيبِ الْعَيْشِ إِنْسَانُ
هِيَ الْأُمُورُ كَمَا شَاهَدْتَهَا دُوَلٌ   مَنْ سَرَّهُ زَمَنٌ سَاءَتْهُ أَزْمَانُ

* * *

تَبْكِي الْحَنِيفِيَّةُ الْبَيْضَاءُ مِنْ أَسَفٍ   كَمَا بَكَى لِفِرَاقِ الْإِلْفِ هَيْمَانُ
عَلَى دِيَارٍ مِنَ الْإِسْلَامِ خَالِيَةٍ   قَدْ أَقْفَرَتْ وَلَهَا بِالْكُفْرِ عُمْرَانُ
حَيْثُ الْمَسَاجِدُ قَدْ صَارَتْ كَنَائِسَ مَا   فِيهِنَّ إِلَّا نَوَاقِيسٌ وَصُلْبَانُ
حَتَّى الْمَحَارِيبُ تَبْكِي وَهْيَ جَامِدَةٌ   حَتَّى الْمَنَابِرُ تَرْثِي وَهْيَ عِيدَانُ

وكذلك المرثية التي نُظِمَت عقباً للمحنة الكبرى بقليل(905هـ)، وهي مرثية طويلة مؤثرة للشاعر الأندلسي أبي جعفر ابن خاتمة (ت:بعد905هـ)، والمرثية كما يقول محمد عبدالله عنان عنها في كتابه:(نهاية الأندلس)(12)- هي في أكثر من مئة بيت، وذكر مقتطفات منها ، وأنا أذكر مختارات منها :

أَحَقًّا خَبَا مِنْ جَوِّ رُنْدَةَ نُورُهَا   وَقَدْ كُسِفَتْ بَعْدَ الشُّمُوسِ بُدُورُهَا

دْ أَظْلَمَتْ أَرْجَاؤُهَا وَتَزَلْزَلَتْ مَنَازِلُهَا ذَاتُ الْعُلَا وَقُصُورُهَا

* * *

نْ مَسَاجِدَ حُوِّلَتْ وَكَانَتْ إِلَى الْبَيْتِ الْحَرَامِ شُطُورُهَا

وبعد ذلك حلت المصيبة العامة ، فطُرِد المسلمون في السلاسل ، وقتل قادتهم البواسل أو نصروا بفعل وحيش فيما عرف بمحاكم التفتيش التي قد أقامتها النصارى لتعذيب المسلمين وبلائهم. ويقول عن هذه المحاكم محمد عبدالله عنان في كتابه :"نهاية الأندلس" ثم بعد ذلك دعاهم (أي ملك قشتالة) إلى التنصير ، وأكرههم عليه وذلك في سنة أربع وتسعمئة، ودخلوا في دينهم كرهاً ، وصارت الأندلس كلها نصرانية ، ولم يبق فيها من يقول (لاإله إلا الله، محمد رسول الله) إلا من يقولها في قلبه، وفي خفية من الناس وجعلت النواقيس في صوامعها بدل الآذان، وفي مساجدها الصور والصلبان بعد ذكرالله وتلاوة القرآن، فكم فيها من عين باكية وقلب حزين، وكم فيها من الضعفاء والمعذورين ، لم يقدروا على الهجرة واللحوق بإخوانهم المسلمين ، قلوبهم تشتغل ناراً ، ودموعهم تسيل سيلاً غزيراً ، وينظرون إلى أولادهم وبناتهم يعبدون الصلبان ، ويسجدون للأوثان ، ويأكلون الخنزير والميتات ، ويشربون الخمرالتي هي أم الخبائث والمنكرات فلايقدرون على منعهم ولا على نهيهم ولا على زجرهم، ومن فعل ذلك عوقب بأشدالعقاب ، فيا لها من فجيعة ما أمرّها ، ومصيبةٍ ما أعظمها، وطامة ما أكبرها..! وانطفأ من الأندلس الإسلام والإيمان ، فعلى هذا فليبك الباكون، ولينتحب المنتحبون، فإنا لله وإنا إليه راجعون، كان ذلك في الكتاب مسطوراً ، وكان أمرالله قدراً مقدوراً "[13] كماقال المقري عن جلاء العرب عن لأندلس:"وبالجملة فإنهم (أي أهل غرناطة) تنصرواعن آخرهم بادية وحاضرة ، وامتنع قوم عن التنصير، واعتزلوا النصارى فلم ينفعهم ذلك ، وامتنعت قرى وأماكن ...فجمع لهم العدو الجموع ، واستأصلهم عن آخرهم قتلاً وسبياً ..."[14]

وبعد هذا التاريخ الحافل بالعطاءات والبطولات ثم الابتلاءات ، من المحزن والمؤسف جداً : أن أسبانيا الآن ـ الأندلس سابقـاً ـ لايوجـد بها أي أثـر للإسلام!!

وأماظروف شبه القارةالهندية فهي تختلف عن شبه الجزيرة الأندلسية ، حيث إن الأعداء تربصوا في شبه القارة الهندية بالإسلام والمسلمين ، واستطاعوا في النهاية لسبب أو لآخر القضاء فيهاعلى الحكم الإسلامي لكنهم لم يستطيعوا القضاء فيها على الإسلام ، فهو موجود فيها، وبقوة، وفي ازدياد يوماً بعد يوم ، على عكس شبه الجزيرة الأندلسية المنكوبة ، ولعل السبب في ذلك يعود إلى:

أن الإسلام انتشرفي شبه الجزيرة الأندلسية تحت مظلة السلطة من أمرائها وملوكها وحكامها ، واختفىمنها الإسلام والمسلمون معاً بمجرد سقوط هذه المظلة على الرغم من امتداد فترتها الزمنية لعدة قرون.إلا أن الأمر كان مختلفاً نوعاً مافي شبه القارةالهندية ، لأن سلاطين الهند وحكامها المسلمين وإن كانو وفروا مظلة السلطة لنشر الإسلام ، فكان دورهم محدوداً لمجرد إزالة العراقيل والعقبات في طريق نشره من قبل الوثنيين والبوذيين وأشياعهم و أذيالهم ، لكن الإسلام حقيقة انتشرفي شبه القارة الهندية ـ كما يشهد تاريخها الطويل ـ بجهودصامتة من مسلمين عباد متصوفين وزهاد مخلصين الذين وقفوا حياتهم لنشر هذا الدين بأعمالهم قبل أقوالهم ، ألا وهم أناس مغمورون من "الصوفيةالذين لم يكونو يتقربّون إلى السلاطين ، بل السلاطين كانوا يتقربون إليهم لغرض الدعاء بالبركة والتوفيق لهم.

ولعل ذلك كان أحد الأسباب التي مكنت الإسلام من قلوب المسلمين في هذه المنطقة، فلم يستطع أعداؤهم ـ من: النصارى الحاقدين والبوذيين المتربصين والإنجليز المتغطرسين ـ فيها القضاء على الإسلام والمسلمين. وبالله التوفيق، وبيده أزمة التحقيق.

*ـ*ـ*

الهوامش

1) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب:المقري التلمساني ،1/،دارالفكر بيروت ،1998م.
2) قال ابن بطوطة:"وبغرناطة جملة من فقراء العجم استوطنوها ، لشبهها ببلادهم ـ"انظر"مهذب رحلة ابن بطوطة ، ص :294(طبعم الأميرية ببولاق ، عام 1934م)
3) سورة الاسراء آية رقم :16
4) دولة الإسلام في الأندلس: محمد عبدالله عنان، ص:226 "طبعة مؤسسة الخانجي بمصر، عام 1960م"
5) (i) الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية : أمير شكيب أرسلان، 276/1،(المطبعة الرحمانية بالقاهرة عام 1936م)

(ii) غاية النهاية في طبقات القراء : ابن الجزرى ، 2/2 (دارالكتب العلمية ببيروت 1982م) ، (iii) دولة الإسلام : محمدعبدالله عنان ، ص:226.

6) باستثناء السواحل من بلاد ملواس ومليبار ولكوكن، فإنها كانت مورداً ومشرباً لأهل اليمن والحجاز، وأنهم كانوا على مذهب الشافعي. انظر : الثقافة الإسلامية في الهند:عبد الحي الحسني، ص: 103(طبعة دمشق عام 1987م).
7) قال عبدالحي الحسني في الثقافة الإسلامية في الهند، ص: 44.43: " وأما أهل الهند فإنهم ليسو من أهل العلم (يعني الأدب العربي) في ورد ولا صدر، ولانخل لهم بواديه ولاسدر،... لأن الإسلام ورد الهند من جهة الخراسان وما وراءالنهر، وكانت غالبةً على أهلهما فنون الفلسفة ، فاختارها أهل الهند ... ولما كان غالبهم الفرس والأتراك كانت منشآتهم باللغة الفارسية".
8) سورة آل عمران آية رقم: 19.
9) سورة الروم آية رقم:4.
10) سورة الاحزاب آية رقم :38.
11) الحلل السندسية، 546/3 ـ 548.

12) نهاية الأندلس: محمدعبدالله عنان وهو كتاب خصصه المؤلف للعصر الرابع من تاريخ الأندلس للقرون الأخرة: السابع والثامن والتاسع للهجرة ص: 253 ـ 255(مطبعة مصر،عام 1958م)، وانظرأيضاً الحلل السندسية، 548/3.

13) نهاية الأندلس، ص: 304.

14) نهاية الأندلس، ص :309(نقلاً عن نفح الطيب 616/2ـ617)

--*